مجلة دراسات إنسانية واجتماعية / جامعة وهران02/ المجلد 13 ع 01، 16 /01/ 2024
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

ماذا نستفيد من محمد عزيز الحبابي اليوم؟

What do we benefit from Muhammad Aziz Al-Hababi Today?

حميدات عبد العالي * Hamidat Abdelali alolahamidat55@gmail.com	فلسفة	وحدة علوم الإنسان: للدراسات الفلسفية، الاجتماعية والإنسانية جامعة وهران 2محمد بن أحمد ؛ (الجزائر).
بوعرفة عبد القادر Pr. Bouarfa Abdelkadrer Bouarfah9@gmail.com	فلسفة	وحدة علوم الإنسان: للدراسات الفلسفية، الاجتماعية والإنسانية جامعة وهران 2محمد بن أحمد ؛ (الجزائر).

DOI : 10.46315/1714-013-001-03

الإرسال: 2023/06/19 القبول: 2023/10/08 النشر: 2024/01/16

**

Abstract:

The present research aims to examine the fundamental philosophical principles of Al-Habbabi's thought, which have paved the way for modern philosophy. These principles emphasize the essential importance of rediscovering the true essence and existence of individuals through their interactions with the world and others. In line with this, the study explores Al-Habbabi's philosophical framework as a means to acquire intellectual wisdom and activate his Islamic individualistic and forward-thinking ideas in order to delineate human values. The main objective of this paper is to evaluate the feasibility of utilizing Al-Habbabi's thought and adapting his conceptual framework to address the demands of the contemporary world. Additionally, we aim to explore his significant contributions to Islamic intellectual landmarks that have led to the reconfiguration of human interactions, based on the principle of harmonious coexistence.

Keywords: Individualism; Futurism; Religious discourse; Values; Human.

ملخص:

نحاول أن نقدّم عبر هذه الدراسة أهمّ مضامين الرؤية الفلسفية لمحمد عزيز الحبابي الذي حاول إرساء قواعد جديدة للفلسفة العربية المعاصرة، حيث تنطلق من ضرورة استرجاع الكائن لشخصيته وكينونته، بواسطة تفاعله مع الآخرين والعالم، وضمن هذا السياق ارتأينا أن نستحضر رؤى محمد عزيز الحبابي حول الشخصانية لنتعلم منها كيف نفكر في واقعنا وفي غَدنا؛ لكي نجعل من فلسفته أرضيةً ننطلق منها، لتفعيل فكره الشخصاني الإسلامي، وأيضا فكره المتخلّق الغَدِي، والإفادة منه لرسم معالم القيم الإنسانية. ومن هذا المنطلق فالإشكال الأساس يتعلق بإمكانية الإفادة من فكره وتطويع جهازه المفاهيمي ليستجيب للواقع. والوقوف على أهمّ محطاته الفكرية الإسلامية في إعادة تشكيل فضاء الإنساني القائم على مبدأ التعايش المشترك .

الكلمات المفتاحية: الشخصانية؛ الغَدية؛ الخطاب الديني؛ القيم؛ الإنسان.

* - الباحث المُرسل: alolahamidat55@gmail.com

**-مقدمة:

تكمن أهمية هذا الموضوع كونه يسلّط الضوء على فلسفة محمد عزيز الحبابي التي حافظ بواسطتها على خصوصية رؤيته الفكرية المنبثقة من التراث الإسلامي ليجعل فلسفته عربيةً إسلامية ذات قيم أخلاقية تُمكن الإنسان من التفاعل مع أخيه الإنسان ضمن بنية مجتمعية لا فردية.

سنحاول تقديم قراءة وتحليل للفكر الحبابي؛ على أساس أنّ فلسفته نص إشكالي يستوجب فتح أفاقه من أجل تجديد نشاطه وتفعيله في فحص أزمة الحداثة، وتقديم رؤية جديدة تلخصت بما سمّاها هو بالشخصانية الإسلامية والغَدية كفلسفة في القيم الأخلاقية والإنسانية. إن الاشتغال بالفلسفة والتأطير النظري لا ينفع الإنسان بشيء؛ إن لم يكن لها صدى في الحياة العملية، ومتّصلة بالحاضر ومستشرفة للغد والمستقبل.

إن الفلسفةَ في عمقها الماهوي تستوجب الانهمام بها لكونها اكتشافا لكينونة الذات والعالم معا. وتوضّيحا لهواجس الغدية التي تمثّلت في الهواجس السياسية التي واكبت وعي الحبابي في صفوف الحركة الوطنية. وتأسيس مؤسّسات جديدة في مجتمعنا، وتأسيس لطرق جديدة لإنعاش الحياة الثقافية والفكرية.

إنّ هذا المبدأ يبيّن مجدّدا الراهنية الكبيرة التي تكتسبها فلسفته الأدبية؛ والتي تغوص بعمق وتحلّل مفاهيم الإنسان والفرد والشخص والكائن بنظرة إسلامية منطلقة من الخطاب الديني. وهنا يتحدّد الهدف من هذه الدراسة هو تحليل أفكار محمد عزيز الحبابي وتوضيح رؤيته الجديدة في تفعيل المواقف الفلسفية. ففي محاولة تغطية هذه المسائل التي وقف عليها الحبابي، استندنا على الآلية الوصفية التحليلية، وأفردنا بعض العناصر التي نراها تلخص بعضا من رؤاه الفلسفية، ألا وهي إحياء الإنسية الحبابية، وكيفية تشخيصه للأزمات، ونظرته الغَدية.

إن هذه التداعيات الفكرية تستدعي إشكالية، نحاول أن نجيب عنها، منطلقين من سؤال رئيس يتمثل في: ماذا نستفيد اليوم من فكر الحبابي؟، ذلك أنّنا حين نستحضر أيّ مفكر سواء قديما أو معاصرا لا بدّ أن نتعلم منهُ كيف نفكر لا أن نتركهُ يُفكر لنا، وأن نفكر معهُ لا أن نفكر مثلهُ. وهذا يعني أنّ استثمار فكر محمد عزيز الحبابي اليوم لا يعني بالضرورة أن نكون له أتباعا وأنصارا ونُمجد فكر ونكرر أقواله، بل يجب علينا أن نجعل ممّا كتب وأنتج موضوعاً نفكر به لحل مشاكلنا الراهنة دون هيمنة أو احتواء.

حين ننظر إلى متطلبات عصرنا الحالي والأزمة التي أصابت الإنسان من احتضار للقيم في عالم يخضع لصراع المصالح تحت مظلّة الظن والزيف، وطغيان الجانب المادّي على الجانب الروحي؛ نجد أن الفكر الفلسفي أضحى قاصرا عن بلوغ شأو المُنظّر لإرساء قواعد منطقية تتلاءم ومشاكل

العصر. بيد أنّ الفلسفة في حقيقتها تفكير يخدم الإنسان في جميع متطلباته الحياتية، وتفكير معرفي يستوعب موضوعاته وله القدرة على الإجابة عن التساؤلات المصيرية.

وضمن هذا السياق المعرفي؛ يبدو محمد عزيز الحبابي - الذي لا طالما أظهر مقدرةً لا مثيل لها - أكثر المفكرين أصالة مقارنة بمشاريع فلسفية أخرى، حيث يتحرّك بما جادت به قريحته الفلسفية ونواياه الطيبة التي تصبو إلى وضع تفكير فلسفي يتماشى ومنطق العقل والواقع.

1- حدود الدّراسة ومجالها

قبل أن ننخرط في معالجة الموضوع، يجب أن نحدد مجال الدراسة وحدودها بناءً على منهج بيار بورديو، الذي يعتبر مجال الدراسة من أهم الخطوات المنهجية الضامنة لضبط الموضوع.

إن النظر في فلسفة الحبابي يستوجب وضع فلسفته ضمن المجال الآتي حصره:

أ- **الفلسفة والأخلاق**: تبدو مبادئ الحبابي الفلسفية على أهمية الشخصانية لا الفردانية، واستعادة جوهر الشَّخص كما ينبغي أن يكون وليس كما هو، ثم تتبعه عملية الانخراط مع العالم والآخرين.

ب- **الفكر الإسلامي ومجال التجديد**: تندرج أفكار الحبابي الإسلامية الشخصانية ضمن منظور الفكر القيمي العالمي المُتأصل في التراث الفكري الإسلامي. حيث يمكن أن تساعد أفكاره في تشكيل لأرضية للمطارحات البناءة حول القضايا المعاصرة في العالم الإسلامي، مثل العلاقة بين الإيمان والحداثة، وطرق السعي وراء القيم الإسلامية ومعطيات الواقع.

ج- **القيم الإنسانية وفضيلة التعايش**: تتجه أفكار الحبابي نحو التعايش المنسجم وإعادة تشكيل التفاعلات البشرية. ويمكن أن يكون هذا التوجه ذا قيمة في تعزيز التسامح والتفاهم والتعايش السلمي بين المجتمعات المتنوعة. حيث تساهم أفكاره في خلق حوار فعال بين الأديان، وتفعيل عملية التبادل الثقافي والوئام الاجتماع ضمن المجال العالمي.

د- **الفطنة الفكرية والحذر الإبستيمي**: يوفر الإطار الفلسفي للحبابي فرصة للنمو الفكري واكتساب الحكمة. عبر الانخراط في فهم أفكاره ونقدها وتطويرها، حيث يمكن للأفراد توسيع فهمهم لمختلف المفاهيم الفلسفية ومهارات التفكير النقدي والقدرات التحليلية. مع التزام أقصى درجات الحذر الإبستيمي حين التعامل مع المفاهيم والأفكار، والتي غالبا تحمل بعض الابعاد الإيديولوجية.

هـ- **الصلة المعاصرة بالتراث**: تصنع أفكار الحبابي جسراً بين الفكر الإسلامي التقليدي وتحديات العالم المعاصر. عبر تكييف وتطبيق أجهزته المفاهيمية، مما يُمَكن الأفراد والمجتمعات من معالجة متطلبات العصر مع الحفاظ على جذورهم وتراثهم الثقافي والديني.

2- إحياء الإنسية الحبابية:

إنّ الإشكالية الرئيسة التي يطرحها محمد عزيز الحبابي والتي تعتبر أرضية مُمهدة لفكرة إحياء الإنسية؛ تتمثل في التساؤل الآتي: لما وصلت الإنسانية إلى ما هي عليه اليوم من تدمير وخراب في كل بقاع العالم؟.

إنّ هذا السؤال الذي طرحه الحبابي؛ هو الذي دفع بنا إلى استحضار مفهوم الإنسانية لكون الإنسان المعاصر في حقيقته لا يحمل إلاّ الشكل الخارجي من الآدمية، بينما في داخله نموذج لحياة أخرى دخلت في حالة النسيان للمعنى الحقيقي الذي تتركب منه الماهية الإنسانية، وهي ماهية ذات طبيعة روحية خلقية تنسّاها هذا الإنسان وضيع خِلقته الأصلية، التي هي المثال الذهني الحقيقي والنموذج الأصلي.

ولعلّ من الواضح أن يكون الفكر الفلسفي بحاجة ماسة إلى مثل فكر محمد عزيز الحبابي، في توضيح معاني تحرّر الإنسان. وفي الحقيقة الأمر أنّ الإنسانية اليوم بحاجة إلى هذا التحرّر الذي يسود فيه العقل على الأهواء والغرائز، والفهم على الصدفة والعفوية والعرضية، والإرادة على العوائد والشهوات، والجهد الشخصي والصراع على السلبية والاستسلام للظواهر الطبيعية، وفي حين أن التّحرر ينطوي على "الفعل" و"الإرادة" إذا انعدما انعدم التحرر. (الحبابي، د س، ص 75) بمثل هذه التوجيهات أراد محمد عزيز الحبابي للإنسان أن يصل إلى إنسانيته، بعد أن يتحرر ممّا يجعله "كائناً" ليصير "شخصاً".

ونفيد ممّا جاد به الفكر الفلسفي الحبابي أنّ الإيمان الإنساني بالنسبة له عملية مستمرة؛ لأنّنا إذا مرقنا من سياقه التحليلي للإنسان ككائن نجده يصف كائنيته عبر الدموع والابتسامات والغبطة الروحية، ولا تكتمل إنسانية الإنسان إلاّ إذا تمكّن من السمو بنفسه فوق مستوى الخضوع للأهواء والاستسلام للانفعالات، ولكن هذا لا يعني قط في رأي الحبّابي، أنّ الإنسان يستطيع خنق هذه الأهواء أو الإجهاز نهائيا على تلك الانفعالات.

ولعلّ من المفيد أن نلاحظ، أنّ تعمّق الإنسان في موقفه البشري يجعله يرتقي بقيمه الإنسانية (زكرياء، إ، د س، ص89) التي انهارت في الوقت الحالي، وكيف يستطيع الإنسان أن يُبرمج نفسه من أجل أن يتحرّر من الضغط المادي ليبني مجتمعا إنسانياً لا تُكدر صفاءه مفازة الخطر..؟ ولا تراق فيه الدموع على مذبح اليتم والتعاسة. كيف يكون الإنسان الذي يطمح إلى أن يكون سيد نفسه في غير اعتداء، لأنّ الصداقة والأخوّة ملكه المشترك...؟ وكيف يكون الإنسان الذي يؤمن بإنسانيته ويصوغ مصيره بنفسه مدام يملك العقل ويتوفر على الإدراك.؟

تبدو هذه الصيحة الإنسانية الحبابية رؤية استشرافية لمستقبل الإنسان الواعي لقانون الكون الذي يقوم على العقل ولإدراك، وهذا الأمر مُلزم لأنّه قبل أن تكون رؤية فلسفية، هي من مرتكزات الخطاب القرآني الذي يدعو إلى إعمال العقل. كما أنّها رؤيةٌ تعطينا جرعة أمل لمستقبل أفضل الذي يُحوّل ظلام البؤس الإنساني إلى ضياء والسعادة والهناء.

فضلاً عن ذلك، إنّ إحياء الإنسية الحبابية في الوجود العربي بواسطة إعادة تكوين الفرد والجماهير حتى لا يصبح تحرير الشعب مقتصراً على الجانب السياسي، بل من أجل بناء إنسان جديد يتكيف مع

الشروط الأخلاقية والاقتصادية للدولة، لأنّ القومية العربية هي إرادة الشعب العربي أن يتحرر ويتوحّد، وأن تعطى لهم فرصة تحقيق الشخصية العربية في التاريخ، وأن يتعاون مع سائر الأمم على كل ما يضمن للإنسانية سيرها القيوم، فالعروبة هي إنسانية بحدّ ذاتها وتعني تقديس قوميات الآخرين (Zoghbi; P,1985.p 181).

3- في كيفية تشخيص الأزمات:

يمكن أن نقول من باب البديهية أنّ الكائن البشري قاطبة قد عرف على مرّ الزمن ضروباً متباينة من الأزمات، فنرى الإنسان ما إن يتخلص من أزمة حتى يدخل في أزمة أخرى؛ إلاّ أنّ ما يميز أزمات اليوم أنّها كثيفة ومتّصلة، تتجاوز الفرد لتشمل الجماعة. ضمن هذا الإطار التوصيفي لواقع الإنسان. نجد محمد عزيز الحبابي يحاول تقييم طبيعة هذه الأزمات وفهمها؛ حيث يتساءل في الكثير من المواقف عن طبيعة هذه الأزمات، هل تنحصر هذه الأزمة في التنظير والخطاب أم أنها أزمة ممارسة؟ بمعنى هل هي أزمة خطاب أم أزمة واقع؟ وفي الوقت نفسه ينبهنا أنّها أزمة مركبة؛ بمعنى أنّها أزمة خطاب يُنظّر وأزمة أفعال تتأثر بهذا الخطاب على مستوى الممارسة والتفاعل. بالتالي هي ثلاث أزمات أساس مُترابطة فيما بينها، حيث تقود كل أزمة إلى أخرى، والعلاقة بين هذه الأزمات تجعلنا نُقرّ -إلى حد ما- بأنّنا نعيش فعلاً أزمة حضارة وأزمة أخلاق، وأزمة قيم وأزمة متعدّدة الأبعاد (الحبابي، م، ع، د س، ص50.) كما يرجع الحبابي ذلك، أيضا، إلى غياب دور المثقّفين في ملامسة الواقع وتغييره من خلال تفكيرٍ جاد يعالج هذه الأزمات.

وكان من التفاعل الوجداني للحبابي هو اهتمامه بالفلسفة الشخصانية التي تهتمّ بالوجود الإنساني والتي تلتقي مع الواقع المتأزم، ومفاد هذه الفلسفة أنّ حركة التشخصن توصف بأنّها فعالية متجدّدة لا تتمّ إلاّ بمشاركة الذوات الأخرى؛ وضمن هذا الإطار تحدّث الحبابي على البعد الاجتماعي في تحقيق التواصل الوجداني وبالتالي نجاح عملية التشخصن؛ إذ يرى أنّ: " الفرد لا يتجاوز فرديته نحو شخص إلاّ مع الآخرين، فهو بطبيعته ألفة وتواصل" (الحبابي، د س، ص 46). وإنّنا ما نفيده من هذه الفلسفة الحبابية الشخصانية ليستمرّ السلام الواقعي لابدّ من أن تنصهر الذات الإنسانية الفردية في الذات الجمعية؛ فتتجاوز ذاتها بنفسها فلا تنحصر في الحاضر ولا ترتبط بالماضي. فلمّا تبتعد الذات الفردية عن التفاعل مع الذوات يتوقف فعل التشخصن فينتج عن ذلك: " انفصال الكائن البشري عن الحركة الحياة الجماعية التي يتطور بها الكائن نحو شخص"(وقيدي، م، 1999، ص 153).

فما نلحظه من فلسفة الحبابي أنّه ينطلق من أرضية إسلامية مرتكزاتها الخطاب الديني حيث يقسم الله عز وجلّ بالعصر أنّ الإنسان لفي خسر مادام بعيدا عن عمل الصالحات والتواصي بالحق والتواصي بالصبر ضمن الجماعة إذ يقول الله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِالصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: الآيات 1-3].

وتأكيدا لهذا المفهوم عند الحبابي نضيف أيضا قول رسولنا الكريم عليه أزكى الصلوات والسلام: {المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضًا.} [أخرجه البخاري، كتاب المظالم والغصب، باب نصر المظلوم، (3/ 129) برقم: (2446)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين

وتعاطفهم وتعاضدهم، (4/ 1999)، برقم: (2585).] وكلها مفاهيم تجلي عملية السلام ضمن البنية التفاعلية المجتمعية. وهي قضية مطلوبة تفيدنا لإصلاح ذواتنا وليرتقي بها الإنسان إلى القيم العليا.

فما قدّمه لنا الحبابي من رؤى هو ضرب من التأسيس حضاري المبني على القيم الأخلاقية والحب والعدل والتفاني في خدمة الآخر؛ ولأنّه بات من المتّفق عليه أنّ انحطاط الحضارات كان سببه انحلال التماسك الاجتماعي وانتشار الأنانية بين الحكّام لانغماسهم في الملذات والشهوات ونسيانهم الرعية. ولعلّنا لا نجانب الصواب إذا قلنا أنّ هذه الفلسفة الشخصانية تعتبر مشروع تأسيسي للحضارة الانسانية كما ارتضاها الله عز وجل للإنسان؛ حيث أنْبَنَتْ رؤاها الفلسفية على إعادة اكتشاف الذات المسلمة وانسجامها مع الكون ضمن قوانين الطبيعة.

ولا جرم أنّ مقاربة الحبابي الفلسفية للقيم الإنسانية قاطبة التي تربو عن أذهان كثير من فئات مختلفة من المجتمع من المثقفين وغير المثقفين، والمتخصصين وغير المتخصصين ....الخ؛ تستدعي أن نقرّ إقرارا جازما في مثل هذه الحالة أن يكون التصور النظري الفلسفي لديه هو توصيف الوجود الإنساني ضمن سيرورة الزمن والتاريخ والمجتمع؛ إنّها الفلسفة الغدية الحبابية التي تلازم وتعاصر وتساير التطور النوعي للمجتمع الآلي المعاصر ومشاكله. التي شَخصت مشكلات العالم المعاصر عامة والعربي خاصة وتناقضاته.

وضمن هذه الرؤى الفلسفية الغدية يطلعنا الحبابي كيفية الاستئناس بالواقع في الفلسفة الغدية، حتى وإن اختلف المحتوى النفسي والاجتماعي في الشخصانية، فهو بهذا يحاول أن يصيغ فلسفة جديدة تختلف اختلافا بيّنا عن الفلسفات السابقة والمعاصرة، ليتجاوز بها إلى الطرح الواقعي والعملي لأنّ الفلسفة، في نظره، التي لا تُوَقِّع أفكارها عمليا هي مجردّ ثرثرة زائدة؛ ففلسفته إذن، "تستسيغ مكتسبات الفكر المعاصر وتتفتّح على المستقبل وتعتمد على الشك المنهجي الذي يجعلها تضرب بالوثوقية عرض الحائط، سواء كانت في العلوم الإنسانية أو العلوم الطبيعية، وانقطاع عن التأمل النظري المحض، واكتفاء بنظرة مجزأّة عن الأحداث والأشياء ومجموع واقع الإنسان ككل". (الحبابي، د س، ص205). وما نستفيده من هذه الرؤية التوقيعية العملية هو أن يتدخل الفيلسوف في الديموغرافيا والإحصاء وكلّ المشاريع كي لا تجفّ الأفكار، وتتناسب مع الأرقام المجردة (الحبابي، د س، ص 32) لتتجاوز فلسفته المفهوم القديم والحديث بربط الجامعة بالواقع، والثقافة بالواقع، والعلم بالواقع، إلى العرض الدقيق والتحليل الكمي، بالاعتماد على مناهج الإحصاء وبلغة الأرقام حتى يتمكّن المفكر بعد ذلك أن يصف كيفياتها.

و من جهة أخرى يبدو لنا أنّ مشروع محمد عزيز الحبابي الغدوي جاء كإضافة للجهود الإنسانية وفي نفس الوقت محاولة الإنسان أن يتلاءم مع كل الأزمات من خلال طرحه للسؤال التالي: إذا كان الإنسان المعاصر سيظل إنسان التعريفات والمقاييس الكلاسيكية؟، أم يجب أن يبحث له عن تعريف آخر ؟ وذلك بالاعتماد على حاضر التطور الذي يشهده في مختلف الميادين، ومراجعة المعارف المكتسبة، إن منطقنا صادقا اليوم وغدا ؟. (الحبابي، 1991، ص45)

لا ريب أنّ هذه الأسئلة التي تمّ طرحها تدفعنا نحو التّقدم لمعرفة أسباب كل الأزمات الانقسام بين الشمال والجنوب، وما يشملها من مآسي كبرى: كالفقر، ومأساة البطالة، والهجرة.

4- في نظرته الغَدية:

بعدما تعرضنا إلى طريقة محمد عزيز الحبابي في تشخيص الأزمات، ننتقل الآن إلى نظرته الواقعية الاستشرافية ونظرته بالنسبة لمستقبل الأزمة وتبعاتها، كما أوضحت آنفًا، أنّ من سمات الفيلسوف اقتراح حلول لعلاج الأزمة الراهنة بطرح تساؤلات من قبيل: ماذا لو حدث كذا؟ وماذا لو لم يحدث كذا؟ ثم يضع إجاباته عن كل سؤال بما يخدم حل المشكلة والخروج من الأزمة.

5- في الحفاظ على استقلالية المفكر:

إنّ أهمية التفكير النقدي عند الحبابي تكمن في إكساب المفكر أو المثقف مرونة وموضوعية في حل المشكلات، والانفتاح العقلي والاستقلالية في اتخاذ القرار، ولكي يكون الباحث ناقداً يجب أن يطوّر بعض السمات الشخصية كنبذ الأحكام المسبقة أو المبنية على الافتراضات، ويجب أن يكون بعيدًا عن التعصب والجمود، وتأثيرات الثقافة. إلاّ أنّ الواقع يثبت لنا عكس ذلك. وضمن هذا المعطى نجد الباحث بوعرفة عبد القادر يذهب إلى أنّ إشكالية المثقف في عصرنا غالباً ما ترتبط بالانتماء السياسي والثقافي حتى بات التسليم بأنّه لا يوجد مثقف في العالم العربي الإسلامي يملك استقلالية فكرية، أو يضع نفسه في خان الممتلك للحق والحقيقة (بوعرفة، ع، القادر، 2006، ص 331).

إنّ مشروع محمد عزيز الحبابي الشخصاني محاولة جادة تهدف إلى تجاوز أصول الشخصانية المسيحية والشخصانية ذات النزعة الفردية، من أجل بناء منظور شخصاني يتوخى استثمار بعض مكونات المرجعية الثقافية الإسلامية بهدف بلورة ما يمكن من محاورة الفلسفة الغربية، وإعادة إنتاج مفاهيمها في ضوء أسئلة الثقافة الإسلامية المعاصرة. وبالتالي ليس من المبالغ فيه إذا استحضرنا قول الباحث محمد المصباحي: "بعد ابن رشد جاء الحبابي" (الجابري، 1986، ص55). أي أنّ الأمر يتعلّق بالطريق الجديد الذي سلك سبيله محمد عزيز الحبابي، وهكذا بقي محافظا على استقلاله الفكري.

إن الانفتاح على الآخر في نظر محمد عزيز الحبابي لا يفترض بنا الخروج من الذات، بقدر ما يحدث الالتقاء بالآخر جوانيا. بمعنى أنّه ليس اختياري، ولا يأتي تاليا على فعل إرادي، بقدر ما هو متضمن مقدماً في الفعل المؤسس للفرد بعينه.

6- أنثروبولجيا الحوار:

يرى محمد عزيز الحبابي أنّ الأزمة التي نعيشها ليست أزمة هوية، وإنمّا أزمة كونية، أي عجزنا على الانخراط كليا في معمعة الحداثة والتنوير الكوني. ولذلك كانت الأسئلة التي طرحها المفكرون تدور حول إمكانية تعايش العقلانيات التقليدية مع العقلانيات الحديثة، مع طغيان البحث عن إمكانية تصور حالة وسطى تجمع بين العقلانية واللاعقلانية، وبين العقلانية التقليدية والعقلانية الحداثية، تخرجنا من الأزمة المزمنة التي نتخبط فيها.

ما يجب التأكيد عليه هنا وهو أنّ الحوار الذي جرى ويجري بين العقلانيات الحديثة والعقلانيات التقليدية، وبين المسلمين والمسيحيين، حوار بين الناس لا بين الأفكار أو الأديان، أي حوار بين أتباع العقلانية التقليدية والعقلانية الحديثة، وبين أتباع المسيحية المؤمنين بها، وبين أتباع الإسلام المؤمنين به.

كما نجد الحبابي، ففي كتابه المعنون: "من الكائن إلى الشخص دراسات في الشخصانية الواقعية"، يؤكد على ضرورة دخول الإسلام والمسيحية في حوار حقيقي غير مؤدلج دون الانغلاق فيه على رؤى العالم الأخرى. ولدخول في هذا الحوار لا بدّ من التّمتع بالكرامة الإنسانية، مؤكداً أنّ كل الأديان والفلسفات تضع نصب عينها تحقيق تلك الكرامة الإنسانية (الحبابي، د س، ص 95). فالحوار الذي يدعو إليه الحبابي، والذي يجب علينا أن نتعلم منه كيف يؤسّس، هو الحوار المبني على وجود أنظمة فكرية تملك كلّها الحق في التعبير والحياة، وأن تكون لها حياتها الخاصة. وعليه، إن اعتقادنا بوجود حقيقة دينية واحدة لا يقل خطورة عن التوتاليتارية الحديثة.

7- في طريقة توظيفه للفكر الغربي:

يتّفق أغلبية الباحثين الذين يتابعون فكر محمد عزيز الحبابي على تقسيم فكره إلى ثلاث مراحل متمايزة نسبيا هي مرحلة الفلسفة الشخصانية الواقعية، ومرحلة الشخصانية الإسلامية، ومرحلة الفلسفة الغدية، إلاّ أنّ هذا التقسيم لم يمنع من الإشارة إلى الوحدة في فلسفة محمد عزيز الحبابي؛ كما أنّ الوعي الذي ظهر لديه بضرورة بلورة موقفه الفلسفي كان مستعيناً بتيار فلسفي غربي ليعبّر عن وضعه كفيلسوف ينتمي إلى بلد من البلدان الساعية إلى النمو.

في الحقيقة نجد الباحثين يقدّرون مجهود محمد عزيز الحبابي الفكري الذي بذله في تجاوز بعض التناقضات التي اعترضت فكره كمفكر من بلد عانى من الهيمنة الاستعمارية. وأبرز المتناقضات التي يمكننا الاستفادة منها هي تأثره بالتيار الفلسفي الغربي ومحاولة تكييفه حسب الفكر الإسلامي بحيث يكتسب خصوصية تتلاءم ووضعه كمفكر لا ينتمي إلى الشرط التاريخي نفسه. وهذا الفعل التكييفي في نظر الحبابي يجعل المفكر قادراً على تأصيل جهاز مفهومي ذي بنية علائقية، يجب على المفكر الانتباه لها؛ وهي الانتماء الثقافي والتاريخي والاجتماعي؛ ليمتلك القدرة على الإبداع والتفاعل مع واقعه وشروطه (الحبابي، 1995، ص16).

ويذهب الباحث يوسف بن عدي معلّقا على هذه الفلسفة الحبابية الجديدة بأنّها فلسفة ذات نظرة متكاملة، حيث عمل الحبابي على بيان حدود النزعات الفلسفية الغربية المعاصرة، في شخصانية رونوفي، وشخصانية مونيه، ولاكروا، وجودية سارتر، وحدسية برغسون... وأسهم في بناء "النظرية النقدية الفلسفية: " المتضمنه في مشروعه، وبهذا اعتبر الباحث يوسف بن عدي فلسفة محمد عزيز الحبابي هي بالفعل فلسفة للتخطي والتجاوز نحو تشييد رؤية فلسفية وفكرية وواقعية." (يوسف بن عدي، 2016، ص 41). إنّا ما نستفيده من الحبابي تأسيس قواعد جديدة ذات معايير إسلامية باستثمار مفاهيم الفلسفة الغربية دون التقليد، انطلاقا من عملية نحت المفاهيم وضبط المصطلحات.

إلاّ أنّنا وجدنا كثيرا من الباحثين ينبهرون بجرأة الحبابي على امتلاك الشجاعة لأن يخلق تفكيرا مختلفاً، ومن جهة أخرى نجد الباحث بوعرفة عبد القادر يبارك هذا الصنيع بحيث يراه ضرب من الاستيعاب في كيفية التعامل مع نصوص الآخر إذ يقول :" أنّ اغلب المفكرين العرب لم يستوعبوا كيفية التعامل مع النص الوافد، ثم كيف يكون الباحث شريكاً في إنتاج النص لا مستهلكاً له فقط." (بوعرفة، 2006، ص331)

***- خاتمة:**

وختاما لهذا البحث نوجز في النقاط التالية ما يمكن أن نستفيده من محمد عزيز الحبابي:

- نستفيد من محمد عزيز الحبابي تبنّيه فكرة التخطيط الاستراتيجي للأزمة، بمعنى إنّنا نقترح حلول ونطرح التساؤلات في الوقت نفسه بجدوى أو من غير جدوى هذه المقترحات؟ وفي الوقت نفسه يُعِدّ خططا أخرى بديلة في حالة عدم جدوى الخطة الأولى، وهذا إن دلّ على شيء إنمّا يدلّ على أنّ الحبابي يتميز بالانفتاح المُنهج والتحرر المُتدرج، والمرونة في الفكر.

- يعطينا محمد عزيز الحبابي فكرة أنّ هناك قابلية للتغيير ومواجهة الواقع، وقدرتنا على وإجراء التحسينات من حين لآخر، تجعلنا قادرين أيضا على وضع ذواتنا موضوع السؤال؛ دون انفعال ودون انهيار، وقادرين على إعادة تنظيم أنفسنا وتغيير أدوارنا في الحياة.

- نستفيد من محمد عزيز الحبابي أنّه قدّم لنا أرضية فكرية لاختراع حلول جديدة للمشاكل العالم الثالث دون الرجوع إلى العادة. ففي إنصات محمد عزيز الحبابي المرهف للإرث الفلسفي، ومع كبار الفكر الإسلامي وانطلاقاً من أبي حامد الغزالي في بغداد ونيسابور، مرورا بابن رشد وابن عربي في الأندلس، وصولا إلى ابن خلدون في قرطاج، استطاع في رحلته الطويلة هذه أن يصوغ فكرا جديدا يشعّ ضوءه من داخل هيئة الكائن الإنساني. كما لا نغفل اهتمامه بأجيال العالم الثالث؛ إذ قدّم إهداءً لهم في روايته "جيل الضمأ" حيث يقول فيه:" إلى أجيال العالم الثالث الظامئة، إلى الحب والحرية، في صراعها من أنسنة جديدة للعالم." (الحبابي، د س، ص16) بهذا أصبح محمد عزيز الحبابي المفكر الذي يحاور المستقبل، على أساس من الحرية والعدالة، ذلك ما رآه من معاناة العالم الثالث من ويلات الاستعمار.

- نستفيد من محمد عزيز الحبابي أن نُوقّع ما تعلمنا، بمعنى أن نكون قادرين ليس فقط على التكامل وجعل معارفنا متماشية مع العصر. بل أن نكون قادرين على مقاربة شخصية للواقع والحاضر من أجل بناء مفهومات جديدة؛ لأنّ بها يستطيع المجتمع صناعة مصيره بنفسه.

- نتعلم من محمد عزيز الحبابي في نظرته الاستشرافية في كيفية الإحساس بالآخرين وبالعلاقات الإنسانية وتقبل الذات بما هو كائن متفرد، وتقبل الآخر أيضا بما هو كائن مغاير وكائن شريك.

وما نكتشفه عند تأملنا لما كتبه محمد عزيز الحبابي من مقالات ودراسات وبحوث ورسائل جامعية، نلخصه في مسألتين أساسيتين:

أولا: الاعتراف بقيمة الفيلسوف ودوره المتميز في الفكر المعاصر إلى درجة الإعلان بأنّه لحظة ميلاد جديدة للعقلانية في الوجود العربي-الإسلامي، أنه مفكر في المرتبة الثانية بعد ابن رشد.

ثانيا: المشروع الذي عمل على بنائه وتكوينه لم يكن يوتوبيا أو حلماً من أحلام الفلاسفة، بل حركة دائمة للفعل الثقافي، جعلت المفكر المعاصر محمد وقيدي يحرص على التعريف بها، والانتصار لوجودها التاريخي، وفعاليتها الفكرية التي تنوّعت بتنوع الاهتمامات الفلسفية سواء تعلق الأمر بالسياسة والإيديولوجية أو بالتاريخ والأدب أو بمناهج العلوم واللسانيات أو فلسفة العلوم وتاريخها؛ وبعبارة أخرى، إنّ الحبابي يحضر في قراءات عديدة تستجيب بشكل أو آخر لتلك الاهتمامات، التي تعبر أول ما تعبر عن رهان الإبداع وهاجس النهضة.

***

1- المصادر:

-الحبابي، محمد عزيز (1995). مفاهيم مبهمة في الفكر العربي المعاصر. القاهرة: دار المعارف.

-ـــ (1991). عالم الغد/ العالم الثالث يتهم. ترجمة فاطمة الجامعي الحبابي. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية.

-ـــ (د س). جل الظمأ. منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، د(ط).

-ـــ (د س). من الحريات إلى التحرر. مصر: دار المعارف، د(ط).

-ـــ (د س). من الكائن إلى الشخص دراسات في الشخصانية الواقعية، الجزء الأول. الطبعة الثانية. مصر: دار المعارف.

2- المراجع:

- إبراهيم، زكرياء. (د س). مشكلة الفلسفة. مكتبة مصر، د(ط).
- بن عدي، يوسف (2016). محمد عزيز الحبابي وتأسيس الفلسفة الشخصانية الواقعية. الدار البيضاء: المركز الثقافي للكتاب للنشر والتوزيع.
- الجابري، محمد عابد (1986). نحن والتراث قراءة معاصرة في تراثنا الفلسفي. الدار البيضاء: منشورات الفكر الثقافي العربي، الطبعة الخامسة.
- بوعرفة، عبد القادر (2006). المدينة والسياسة دراسة في الضروري في السياسة لابن رشد. القاهرة: مركز الكتاب للنشر.
- وقيدي، محمد (1999). جرأة الموقف الفلسفيين إفريقيا الشرق. المغرب، د(ط).

- Zoghbi, P. (1985). Témoignage (Liban)- Le personnalisme D'Emmanuel Mounier. Hier et domaine. Paris: Seuil.